

العدد العاشر  
تشرين الاول ( اكتوبر )  
السنة السادسة عشرة

\* \*  
No. 10  
Octobre  
16 ème année

# الأداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص. ب ٤١٢٣ بيروت - تلفون ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle  
Beyrouth - LIBAN

الادارة : شارع سوريا - بناية درويش  
B.P. 4123 - Tel. 232832

صاحبها وصديرها الأستاذ  
الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Rédacteur  
SOUHEIL IDRIS

سكرتيرة التحرير  
عائدة مطر جي إدريس

Secrétaire de rédaction  
AIDA M. IDRIS

## الصغير والحمرتين

قصة بقلم غسان كنفاني

لحظة واحدة ، ولكنه أمضى أكثر من ساعة يحذر فيها من الطريق وضراوة الطريق ، وكان تحذيره صحيحا تماما ، لقد انصف النهار ولم يزل في منتصف الطريق ، ويخشى الان ان يصل الى صغد مع حلول الغتمة ، اذا وصل !

مطر ليلة البارحة بلل التراب وغسل صخور هذا الجبل الاجرد ، ورغم ذلك فان الجفاف ما زال متديا بوضوح . حين شهدته انه يتسلل من باب البيت مع الفجر لم تسأله عن وجهته ، ولكنها طلبت اليه ان يتدثر بمعطفه ففعل دون مناقشة . آكانت تعرف ، يا ترى ، خطته التي مضى وحده ثلاثة أيام قاسية ؟

بعد ربع ساعة فقط مرت سيارة عتيقة قادمة من عكا ، فحشر نفسه في زحام ركابها الصامتين المتدثرين بمعاطفهم ، ودفع للسائق آخر قرشين كان يحملهما فدهسهما في جيبه دون أن ينظر اليهما ، وحين نزل على مفرق نحف لاحقه الركاب بعيونهم الصامتة : كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها الواهنة حين أخذ يتسلق الطريق الترابي الذي يفصل نحف عن الشارع العام ، وكان صقيع الليس الجبلي ما زال يخز عظامه بقسوة .

دق بقبضته الباب الخشبي لدار خاله أبو الحسن . كان يعرف ان خاله قد انتهى من صلاة الفجر وهو في سبيل ان يعود الى فراشه لينام مرة أخرى حسب عادته التي لم يغيرها منذ وعى خاله وبيت خاله . وحين فتح الباب وردت العينان المدهوشتان تحية الصبح بسط حكايته بايجاز ، قبل أن يخطو الى الداخل :

- الشباب في صغد يحاصرون القلعة ، جئت أستعير بندقيتكم لآذهب الى هناك ، هل ستعطينيها ؟

- ومن أين ستحصل على الفسك ؟

- اشتريته .

- كم فسكة ؟

( \* ) من مجموعة « من الرجال والبنادق » التي تصدر هبدا الشهر عن « دار الاداب » .

انكا بظهره ( \* ) المبتل على صخرة وفرش ساقيه منفرجتين وأخذ ينظر الى السماء : كانت فيوم داكنة تتسابق فوق رأسه وقد توهجت اطرافها بضوء الشمس فبدت كأنها تلتهب ، وخيم حوله صمت ثقيل : أبدا لم يخطر في باله ان مثل هذا الوعر يمكن أن يكون موجودا . حتى حين قال له خاله ان الطريق بين مجد الكروم وصغد تستعصي على الماعز لم يصدق ، وابتسم بهدوء وهو يد له كفيه فيتلقي البندقية التركية العتيقة ، وحين ضمها الى صدره قال له خاله مرة أخرى : - الطريق بين مجد الكروم وصغد وعر يستعصي على الماعز ، ان ولدا مثلك سوف يموت في الشول قبل أن يقطع نصف المسافة . ودون أن يلتفت اليه رد ، للمرة العاشرة منذ الصباح ، على كلمة ولد التي لا ينفك خاله يوجهها اليه :

- أنا لست ولدا .

- عمرك سبعة عشر عاما ، والبندقية التي تحملها تزن أكثر من نصف وزنك ، والطريق طويلة شرسة .

وانتابه الرعب لحظة واحدة فقط فشد البندقية الى صدره واستدار فواجه خاله من جديد :

- اذا كنت خائفا على بندقيتك فقل ذلك بصراحة .

- أنا خائف عليك . أنت مجنون صغير ولكنني لا أريد أن أفشلك ، لماذا لا تقف على الطريق وتركب السيارة فتصل الى صغد ؟ لماذا ، أصلا ، تريد الذهاب الى صغد ؟ قللة رجال هناك ؟

ولم يبد على خاله انه يريد أجوبة لكل هذه الاسئلة ، ففور أن انتهى من الكلام مد يده فربت على كتفه ، ووضع حدا للحوار الذي استمر ساعة وأكثر من ساعة :

- مع السلامة ، انتبه دائما الى ان هذا المدفع الذي تحمسه وحش لا أمان فيه ، انه شيء قديم ، ولكنه ما زال صالحا .

هذا الخال الغريب الذي يطلق أسماء أخرى على الأشياء ، يقول له ولد بدل أن يناديه باسمه ، ويسمي البندقية العتيقة مدفعا ، يعرف حقيقة الامور أكثر من أي مخلوق آخر على ظهر هذه الارض . فعين دق بابه في أبكر الصبح ورجاه ان يستعير بندقيته لم يتردد

ومرة أخرى انتابه رعب مفاجيء ، إلا ان البندقية كانت هناك ، مستريحة فوق فخذه ، مثل شيء أسطوري يبعث في صدر الإنسان اطمئنانا مجهولا .

- « ذلك أفضل ، على أي حال ، من فقدان المرتبة » . قال ذلك بصوت عال ليزيد في اطمئنانه « الطريق المعبود مليء بالدوريات الانكليزية ، واذا شاهدوها معي صادروها » .

ربت على ذراع البندقية وابتمس بوهن :  
- ثم ان القروش ذهبت الى الفئسك .. أنت تعرفين ذلك .  
أوقفها أمامه وثبت كعبها بين قدميه ثم عاد فضغطها بكتلتنا كفيه ففاضت قليلا في التراب الرطب ، أزاح كفيه عنها بحرص ، ولما لم تقع عقدهما خلف رأسه وانكأ على الصخرة من جديد وأنشأ ينظر اليها .

- سوف أحصل عما قريب على مرتبة خاصة ، ستكون لي وحدي ، وأنت ستعودين الى بيتك تحت فراش الصوف ، واذا سمح لك بالخروج فانما لاصطياد العصافير والسناجيب فقط ، الثعالب أيضا ، ربما ، في حالات نادرة ..

كانت بندقية ذات ماسورة طويلة تنتهي بفوهة فقدت مسمارها ، وكان حزامها الجلدي قد انقطع فربط خاتمه عوضا عنه حبلا من اللين بلله آزيت وسودته الأيدي أنتسخة بالطين سنة بعد أخرى فاكتمسب لونا فاتما قليلا . كان بيت النار يتسع لفشكة واحدة فقط تدخل اليه من فتحة في الجانب ، ولم يكن يدري فيما اذا كانت البندقية فسي الاصل قد صنعت على هذه الشاكلة ، أم ان مرور الزمن قد انتهى بها الى هذه الصورة الغريبة . لا شك ان مكانا ما كان قد خصص لوضع مشط يتسع لخمس فشكات أو ست ، وكان عليك أن تسحب المفلق مرة الى فوق ومرة الى الورا كي تسقط فشكة وراء الأخرى في بيت النار ، الا ان مثل هذا الشيء لم يعد موجودا الآن ، وربما كان أمر اكتشاف الصورة الاصلية لهذه المرتبة قد أضحى من اختصاص خبير متمكن في علم تاريخ السلاح . لقد عامل خاله البندقية هذه كما كان يعامل أشجار حقله الصغير : يقصص عروقها ، ويسلخ فروعا منها ليطعم فيها فروعا أخرى ، يرقعها ويشذبها ويملا نواقصها حتى تعود فتبدو كتلة واحدة من جديد . ترى ماذا فعل بهذه البندقية في ربع القرن الاخير ؟ ربما كانت علاقته بها هي التي جعلته يسميها مدفعا ، فقد فقدت في الحقيقة كثيرا من صفات البندقية ، ولسبب ما صارت تصدر ، حين الاطلاق ، صوتا متويا كالرعد .

- « ورغم ذلك فأنت مرتبة طيبة ، وتصويبك يكاد لا يخطئ .. المهم في الامر هو انك أمينة ، فأنت لا تخرجين رصاصك الا من مكان واحد ، انني أرجو ذلك ، على الاقل » .

كان لذراعها لون بني كامد ، وبدا كأنه مكون من قطعة واحدة ، الا ان ذلك لم يكن صحيحا ، فقد شهد خاله ، مرة ، يرقع الذراع بقطعة من خشب الزيتون نشرها ونعمها بعناية لا تصدق ، ثم دقها الى الذراع ببراعة فائقة : كانت قطعة من الذراع قد انسلخت حين أضطر خاله ، ذات يوم ، لان يستعمل عقب البندقية في قتل افعى فاجاته في طريق عودته الى الدار ، ولقد تحطم يومها رأس الافعسى وجزء من ذراع البندقية معا ، ولكن ذلك الحادث لم يكن ليستطيع أن يقنع أبا الحسن بأن عمر المرتبة قد انتهى .

- « لو كنت أملك بندقيتي لما استعرتك من خالي أبو الحسن ، ويجب أن تكوني طيبة جدا معي كي أستعيرك مرة أخرى في المستقبل . انه شيء غريب ، أليس كذلك ؟ أعني أن أذهب من مجد الكروم الى نحف كي أستعير مرتبة أقاتل بها في صغد .. أن مرتبة أبو مصطفى في كسرة مرتبة جيدة ، لها مشط وحزام وكل ما يلزم المرتبة لتكون سلاحا جيدا ، ولكن أبو مصطفى لن يعيرني مرتبته ، ثم ان كسرة ليست على الطريق بين مجد الكروم وصغد ، وذلك حري بجعل المسافة أطول .. » .

وفي أقل من لحظة واحدة كان قد انتصب واقفا ، واختطف البندقية وأنشأ يحث خطاه ضاربا في الوادي تجاه الشرق :

- « لعن الله الخيال ، لعن الله أحلام اليقظة ، كما يقول

- حوالي العشرين .  
- وبعشرين فشكة تغزو قلعة صغد ؟  
- هل تعيرني بندقيتك ؟ ساعدها لك بعد يومين .  
- واذا مت ؟

قالها خاله باسمه كأنه لا يصدق الحكاية ، ولكنه لم يتسهم ولم يتردد ، كان قد أعد جوابا لكل هذه الاسئلة :

- اذا مت سيعيدها لك حسام ، انه هناك وسأوصيه بذلك .  
دار خاله على عقبيه وخطا الى الداخل ، وحين غيبه الامر سمع صوته ينادي :  
- أدخل أيها الولد ، تناول الفطور .

ولكنه لم يدخل ، كان قد قرر ذلك منذ البدء ، وصاح بدوره :  
- هل ستعطيني المرتبة ؟

- حملت بها الليلة ؟ لماذا لا تقول يا فتاح يا عليم ؟  
- أريد أن أعرف ، لا أريد أن أضيع وقتا ، اذا كنت لا تريد اعارتي مرتبتك فلي أن أذهب فوراً الى كسرة ، عند أبو مصطفى مرتبة أخرى قد يعيرني اياها .

ومرت لحظات صمت طويلة ، ثم أطل خاله مرة أخرى من آخر المر وأخذ ينظر إليه بامعان : كان طويل القامة عجوزاً لم تؤثر السنون بعرض منكبيه ، مشمرا عن ساعديه المكسوين بشعر غزير شائب وواضعا طاقية مطرزة فوق شعره الأبيض القصير ، مرت لحظات أخرى تبادلوا فيها النظر بصمت كأنه الامتحان ، وجاء السؤال الذي كان ينتظره منذ البدء :

- هل رويت هذه القصة للعجوز ؟  
- أمي لا تقبل أن تسميها عجوزاً .  
وابتمس ، الا ان خاله كرر انسؤال وهو يقطب حاجبيه

معلنا له ، بهذه الطريقة ، عدم عزمه على الزواج :  
- العجوز ، هل عرفت خطة ابنها ؟

وانتابته سعادة مفاجئة ، فقد اكتشف لتوه ان الجد قد بدأ ، وان خاله شرع يدرس التفاصيل ، ومعنى ذلك انه ، في نهاية

الطاف ، سيحصل على البندقية .  
خلع نعليه ودخل ، فوسع له خاله طريقا في المر السني كان يسده بذراعيه ، ولاحفه بعينيه الضيقتين وهو يدخل الى الفرفسة المفروشة بسط الصوف ومساند القش ، وحين جلس هز خاله رأسه بأسى ، وكف عن انتظار الجواب ، وما لبث أن توصل الى القرار :  
- أم الحسن تغلي الشاي ، لا تقل لها شيئا ، سأعطيك المدفع .  
- كنت أعرف ذلك .

- أنت تستقل طيبة قلب خالك ، أنت ولد شقي .. من أين اشتريت الفئسك ؟  
- من مجد الكروم .  
- كم دفعت ؟  
- جنيها ونصف .  
- من أين ؟

- حلالي ، انت تعرف : قرش فوق قرش .  
- على أي حال ، الرصاص المسروق يقتل أيضا .

كانت المرتبة تحت الفراش ، وكان يعرف ذلك تماما ، فطوال أربع سنوات كان خاله يسمح له كل يوم جمعة تقريبا أن يطلق منها رصاصة أو رصاصتين في الحقل . وكانت ، فيما بعد ، تنظف وتزيت وتدقن تحت الفراش من جديد .

كانت بندقية ثقيلة ، ولكنه حملها باستخفاف ودون أن ينظر اليها ، وحين فتح له خاله الباب بهدوء ، كي يتسلل قبل أن تراه أم الحسن ، علقها على كتفه ، وبخطوات بطيئة ما لبثت أن تسارعت حتى تحولت الى هرولة ، اتجه الى الشرق ، وتسلق حواجز الحقول القليلة التي اعترضته ، ثم أخذ يضرب في الوعر .

قال له خاله ان عليه الابتعاد قليلا عن حقول مستعمرة راما التي ستلاقيه على الطريق ، وانه اذا واصل المسير شرقا مع انحراف طفيف الى الشمال فانه لن يلاقي الا بعض القرى العربية ، ثم سيجد نفسه في الوديان المحيطة بصغد .

مر من انهار نصفه فشرع بالبندقية تزداد ثقلا على كتفه ويضرب كعصا فخذه بلا هوادة ، فقرر أن يستريح هنيهة ، وحين انكأ بظهره على صخرة تقع الى جانب الطريق انضيق الذي حفرته أقدام الانسان منذ عشرات السنين وهي تختصر الجبال شعر بعضلات ساقه تتمزق ،

وحاول أن يفكر بالاستاذ ، إلا انه هز رأسه مبعداً الفكرة بعنف ، وعلق البندقية على كتفه وشد قبضته على الرصاص في جيب سرواله وبدأ يهرول : نانت الشمس قد صارت فوق رأسه مباشرة ، الا انها كانت سجيئة غيوم تتكاثف تحتها مثل ندف القطر .  
- بعشرين فشكة تقزو قلعة صفد !

هتف مرة أخرى بثلك الجملة الساخرة التي قالها خاله ، والتي بدأت الان تلح على ذهنه ، وأزاح كومة عوسج بكفه وبدأ يتسلق ركاباً من الحجارة اعترضت الطريق وفكر : « لو حمل كل رجل في الجليل عشرين فشكة واتجه الى قلعة صفد لمزقناها في لحظة واحدة » بدأ يهبط كومة الحجارة بحذر وبساقين متصلبتين فيما أمسك ذراع البندقية ، وراء ظهره ، بكفه وأبعدها عن جسده ليحفظ بتوازنه : « هذا يحتاج الى كثير من أنجهد ، والى قيادة ، كما قال الحج » . وحاول للحظات قليلة أن يتصور معنى هذه الكلمة ، قيادة ، الا انه لم يفلح ، تصور بادئ الامر ان مهمة القائد هي أن يدور على المقالمين واحدا واحدا ويرشدهم الى ما يتوجب عليهم فعله ، الا انه استبعد هذه الصورة : « كلام فارغ ، ليس الامر بهذه البساطة » . وحسن عجز عن تصور مزيد من التفاصيل استبعد الفكرة بهائياً وانصرف الى حساب الساعات التي قضاها في الوعر : « لا بد أن تكون ست ساعات أو سبعة » . وفكر في أن يستريح مرة أخرى ، الا انه قرر مواصلة السير .

أبوه وأمه سينظرانه ليتناول الغداء ، انيوم يوم جمعة ، ووقت الصلاة قد مر منذ أكثر من ساعتين ، عادة يتناول الغداء مع والديه يوم الجمعة . وسوف يفتقدانه ، ثم سيبدأ أبوه الطعام ، وسيقول وهو يمضغ اللقمة الاولى :

- قلبك على ابنك وقلب ابنك على أنحجر ... هذا الصغير الشقي ..

وستنرد أمه برهة ، حاستها السادسة ستخزها ، عفريتها ، كما تحب أن تقول ، يوشوش في أذنها أخباراً تبعت في نفسها اللقلق ، ولكنها تخفي ذلك عن زوجها ، وتمد يدها ببرود الى الطعام ، وسوف يراقبها هو بطرف عينيه ، ثم سيقول :

- « أنت تحسبين انه لن يأكل الان ، ها ؟ تحسبين انه يتناول طعامه الان من قفا يده ، كما تفعلين ، أقسم بعظام رقية والذي انه يلتهم غذاءه في جهنم الحمراء بكلتا يديه وملء حلقة دون أن يخطر على باله لحظة واحدة » .

ولن ترد أمه ، وتواصل الاكل كان ما قيل ليس موجهاً اليها ، هذه هي عادتها حين تكسون ، في أعماقها ، منصرفه الى التفكير بأمر آخر .

على بعد ساعة بالسيارة الى الغرب ، تقع عكا ، منها الى الجنوب قليلاً تقع حيفا . في شارع الملك فيصل يعيش ابنهما الأكبر ويعمل ، ففي الفرفة الخارجية من شقة فخمة في الطابق الثاني توجد عيادته ، فيما يعيش في الفرفتين الداخليتين وحده ، لم يتزوج بعد . فسي سبيل أن يناديه الناس « يا دكتور » باع أبوه قطعة زيتون ، وخصص لكل عام كومة من تنكات الزيت تباع لتصرف على كتب ونظارات الدكتور قاسم .

ورغم سخريه الاب فقد أفلح الابن ، وعاد من بيروت ذات يوم وكان أول شيء فعله ، حين تلاقي مع أبيه الذي ذهب ليستقبله في عكا ، هو أن مد لسانه ، على قدر ما يستطيع بلعومه أن يدفع ، في وجهه :

- أهذا هو ما تعلمت عند الاميركان في بيروت ، يا ولد يا قليل الادب ؟

وقال قاسم ، الذي أعد الجواب بدقة طوال الطريق :

- كلا ، تعلمت الطب ، أنا دكتور الآن ، دكتور طويل عريض رغم انك صرفت السنوات الماضية كلها تقول ان ذلك مستحيل ، وتقول انني ولد فاشل سادرس ألف سنة ثم أعود الى المحراث !

ولم يستطع الاب أن يكبت فرحة اجتاحت صدره ، فأخذ بذراع

ابنه ودفعه الى سيارة فورد عتيقة عربن عليها منذ الصباح لتتقلها ، والحفاناب وانكسب ، الى مجد الكروم حيث حشنت أم قاسم ثلاث دجاجات ورفبة وفوداع ولت العائلة والحوملة وغربت انى نصف الطريق تتلقى اعاندة العزيز .

- يا دكتور قاسم ، منذ عشرات السنين تعلمت في القسراة الرشيديبة أن ... وقاطعه قاسم ضاحكا :

- انحمار حمار ولو بين الخيول ربا ! دائماً تقول ذلك حينس اقول لك انني سأصير طبيباً . الامر يختلف الآن ، الحمير والخيول ستبقى في مجد الكروم ومحسوبك سيفتح عيادة في حيفا .

وبنفس السرعة التي يستطيع الفرخ أن يجتاح بها صدر أبو قاسم أجنح الغضب عروق جبهته :

- حيفا ؟ فلة أطباء في حيفا ؟ - أين تريدني أن أعمل أذن ؟

- في مجد الكروم يا ولد يا عاق .

- مجد الكروم ؟ نحسب أنني حلاق أدوي الامراض بالعلق ؟ ان

أتخذ رأس في مجد الكروم سينقديني تعريفة ، على الاكثر ، ماذا ؟ أتريدني أن أموت جوعاً ؟

وأطبق أبو قاسم شفثيه باحكام ، انتهى الامر ، لحظات الفرخ كلها انتهت ، وهو يعرف تماماً انه اذا ما استمر في الحديث فسيهدر بما لن يرضي الوالد الذي وصل نتوه من آخر الدنيا . ولوهلة أحس بفصة في حلقه ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لابنه لحظة ضعف واحدة فانشأ يحرق من شبك السيارة فتتسحب امام عينيه حقول الزيتون تلمتع أوراقه في الشمس كصفائح صغيرة من الفضة .

- كيف أمي ؟

- بخير .

- والصغير ؟

- في المدرسة ، هذا الصغير يحب الحقول .

وانفرج صدره ، وعاد اليه الفرخ فجأة ، وتبدت أمامه حقول الزيتون تشع بضوء مقدس :

- الصغير يحب الحقول ، حين يعود من المدرسة يقوص فسي الساقية الى ركبتيه ، ان له يدي فلاح حقيقي .. في كثير من الأحيان يتسلل من البيت في الليل وينام تحت الزيتون ..

ومرة أخرى جاءه صوت قاسم مقاطعا :

- أتم تقفلون هذا الولد ... تقفلونه والله العظيم ! غدا سأخذه معي الى حيفا ، وسيعرف كيف يصنع مستقبله كما يشاء .

وفجأة استدار أبو قاسم وأمسك ابنه من زنده بقوة :

- أنظر الى اليهود ، حين يجيء الواحد منهم ينصرف السى العمل في القرى ... لماذا لا تفتح عيادتك في مجد الكروم ؟

الا ان السيارة وقفت ، وفي اللحظة نفسها شهد أبو قاسم بوضوح ، بوضوح أن ينسأه مدى الحياة ، نظرة احتقار غابرة تلمنع في عيني ابنه ، نظرة لم تلبث أكثر من لحظة صغيرة بارقة ، ولكنه استطاع أن يلتقطها وأحس بها تسقط الى صدره كأنهيار جبلي راعد ، وفي اللحظة التالية علت الزغاريد وانفتح باب السيارة ، ونزل قاسم فتلقفته الأذرة والاثواب المزركشة ، ومن داخل السيارة ، وهو مسمر في مقعده كأنحجر ، شهد زوجته تمسرع وجهها الاسمر الباكى على وجه ولدها العائد فتبلله بالدموع ، ثم تنهمر على ركبتيها وتجهش ببيكاء غريب على صدره فيما أخذت تشده اليها بذراعيها المعقودتين وراء ظهره باحكام ، وحولهما كانت الزغاريد تعلن فخارها العميق بالرجل الذي ذهب فلاحاً وعاد طبيباً : يا سندي يا وندي يا كبدي ، يا ابن مجد الكروم يا فخرها .. يا عودة الفارس ، يا احرسه يا حارس ، يا مئة أصبع في عين الحسود يا احبيه يا مبعود !

وفيما كانت العائلة تزف قاسم الى البيت كان أبو قاسم يسير بعيداً وراء الحشد الصاحب ، يلتقط عوداً ويضرب به جانب قنبازه فيصدر صوتاً كالتنق ، ومن مكانه شاهد الصغير يعدو وراء الحشد محاولاً تلمس أخيه الكبير العائد . قصف العود وطواه الى بعضه ثم ألقاه الى الارض وبدأ يحث خطاه :

- « بقي الصغير » .